**وزارة التعليم العالي و البحث العلمي**

**جامعة التكوين المتواصل**

**تخصص: الإعلام و الاتصال**

**درس المقطع الثالث : الثقافة و مناهج البحث الانتروبولوجي**

**محتويات المقطع الثالث**:

* الثقافة و البحث الأنثروبولوجي
* مناهج و أدوات البحث في علم الانثروبولوجيا

**أهداف المقطع**: يهدف هذا المقطع إلى تمكين المتعلم من

اكتشاف العلاقة الموجودة بين الانثروبولوجيا و الثقافة كموضوعنا لها

التعرف على المناهج المستخدمة في البحث الأنثروبولوجي و الأدوات الأساسية المرافقة لتلك المناهج.

الثقافة و البحث الأنثروبولوجي

نشأ الاهتمام بالثقافة في المجتمعات غير الأوروبية؛ نتيجة وجود فوارق واختلافات بين الثقافات ، هذا الاهتمام اقترن بالسياقات التي واكبت التطورات التي عرفتها المجتمعات الغربية، والتي ارتبطت بالاستعمار وازدهار الاكتشافات وحركات التبشير؛ فظهرت الأثنوغرافية كفرع من الانثروبولوجيا والذي اهتم بوصف ثقافات المجتمعات الأخرى دون الغوص في تحليلها وتفسيرها وتحليل أبعادها وعوامل تشكلها، وأسباب وجود الفروق الثقافية بين المجتمعات غير انه ومع ظهور الانثروبولوجيا بدأت تتطور نظريات تحاول تفسير هذه الفروق ، فكانت النظريات التطورية والتي اعتمدت المنهجية المقارنة احدي المحطات البارزة في تاريخ الانثروبولوجيا والتي عملت على الكشف عن السياق التاريخي لنشأة هذا الاهتمام، وبلورته كإشكال مركزي حاولت الانثروبولوجيا الإجابة عنه .

  أثارت الثقافة اهتمام الانثروبولوجيا وذلك عبر احتكاك الانثروبولوجيين الأوائل بالمجتمعات الغير أوروبية .

كان أهم ما أمكن ملاحظته هو وجود ظاهرة التنوع والتماثل والتعدد والتشابه، حيث هناك تنوع كبير في الثقافات كما أن هناك تماثل بين المجتمعات كما هو نفس الأمر داخل نفس المجتمع الواحد .

تخضع الثقافة بشكل عام لقواعد وضوابط وهي التي تنظم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وبالتالي فهي ( الثقافة ) قد تمثل نمطا من الحياة التي يسود داخل  جماعة معينة، وينظم العلاقة والسلوك الذي ينبغي أن يسود داخلها وهي بهذا المعنى تتميز بنوع من الاستمرارية ، بالفعل يمثل  المعنى الأخير  المعنى الذي يمكننا فهمه من الكتابات الأولى في حقل الانثروبولوجيا، غير أن محاولات تحديد الثقافة قد يفرض على الباحث الكثير من الحذر والحيطة ، فالثقافة كلمة يلفها الغموض  فليس هناك اتفاق بين الباحثين حول تعريف موحد لها ، إذ يمكن أن نحصي أكثر من مأة وستين تعريفا لها ، لذلك يعتبر" ادغار موران'' أن الثقافة هي بداهة خاطئة فهي تبدو وكأنها كلمة ثابتة  حازمة والحال أنها كلمة فخ خاوية ومنومة ومغلقة وخائنة . وبالفعل أن مفهوم الثقافة ليس اقل غموضا وإثارة للشكل والتعدد في علوم الإنسان منه في التعبير اليومي.

ما يطرح مفهوم الثقافة غالبا ما يتم استحضار مفهوم الطبيعة فانطلاقا من هذا المفهوم بدأ يتشكل مفهوم الثقافة فالإنسان حينما نحاول أن نموقعه نجد أنفسنا إزاء ثنائية الطبيعة والثقافة فهناك جانب بيولوجي طبيعي يميز الحيوان وهناك جانب ثقافي يرتبط بالإنسان .

   فالثقافة هي التدخل المباشر للإنسان في الطبيعة بهدف تغييرها وتحويلها من خلال إضافة أشياء مستحدثة وجديدة على الوضع الطبيعي أو وضع الإنسان بشكل عام من خلال استعمال أدوات وتقنيات مادية  ويتم اكتساب الثقافة عبر عمليات التنشئة الاجتماعية حيث تتم عملية نقل القيم وتهذيب سلوك الأفراد، وتهدف الثقافة الى تحقيق الانسجام بين الانسان والطبيعة والمجتمع وكذلك القيم الروحية والإنسانية .

   يعرف "ادوارد تالور" الثقافة بأنها مجموع السلوكيات المكتسبة والمتداولة بين مجموعة بشرية في فترة زمنية محددة وفي مجال طبيعي واجتمعي محدد .

فالثقافة بهذا المعنى هي مجموع التقنيات والعادات والمؤسسات والمعتقدات والتي وقفها يعيش الإنسان ، والتي تختلف من فترة تاريخية لأخرى .

   تعني الثقافة "الحضارة "وهو المعنى الذي أصبح لمصطلح الثقافة حين انتقلت خلال القرن 19 إلى انجلترا فأصبحت مرادفة، غير أننا سنتناول تعريف انثر وبولوجي للثقافة هو ذلك الذي اقترحه "ادوارد تايلور" في كتابه " الثقافة البدائية " والذي اشرنا إليه سالفا .

   إذا عدنا إلى ثنائية الثقافة والطبيعة، يمكن القول أن الطبيعة هي شيء واقعي وليس من صنع الإنسان، وهو بذلك بعكس الثقافة والتي تعتبر من إنتاج الإنسان وهي بهذا المعنى تعارض الطبيعي والفطري والكوني وبالتالي فالثقافة لها تاريخ خاص والذي من خلاله تتميز عن باقي الثقافات الأخرى، فالثقافة هي بمثابة نقيض الطبيعة، ولكي نرسم الحدود بين الإنسان والطبيعة يكفي أن نعاين دخول الإنسان إلى الثقافة. فالطبيعة تتميز بالكونية والعفوية بينتما الثقافة ؛ فعل اجتماعي يتميز بالنسبية .

إن الانتقال ودخول الإنسان إلى عالم الثقافة فرض عليه خلق المحرم ( وبشكل عام خلق المحارم ) ساهمت في سيادة القانون بالشكل الذي تراجع اللجوء إلى العنف والاقتتال ، فالثقافة إذا : هي تقف على النقيض من الطبيعة بل تحاول إلغاءها .

   إن التعريف الذي يقترحه ادوارد تايلور حول الثقافة يتطابق مع الكثير من الملاحظات التي اشرنا إليها في السابق، بحيث ان هناك تطابق بين الثقافة والحضارة بالمعنى الاثنوغرافي فتايلور يعتقد ان الثقافة او الحضارة هي ذلك المجموع المعقد والذي يشمل المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل التقنيات والتطبيقات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في مجتمع معين وبالفعل فان هذا التعريف وجه كل الأبحاث والدراسات اللاحقة، وبالخصوص في ميدان البحث الانثروبولوجي.

   تتميز الثقافة بالاستقلال الكامل عن الناس فالأشخاص هم حاملون للثقافة فالثقافة تبدو وكأنها تفرض ذاتها على الأفراد، بحيث يظهر الأفراد مجرد وعاء ، فالثقافة لها مصادرها وحياتها المستقلة عن الأفراد والجماعات فالثقافة هي بالمعنى الواسع؛ ذلك الكل المعقد والذي يشكل المعتقدات والقوانين والفنون، وباختصار كل ما اكتسبه الإنسان في وضع اجتماعي، فالثقافة تبدو منفصلة عن الأفراد والمجتمع، الأمر الذي يسمح لنا بملاحظتها .

**التعريف بالمنهج :**

رغم التشابه في مناهج العلوم الاجتماعية يمكن إن نلاحظ أن لكل تخصص معرفي يتميز بطرق بحث ملائم موضوعه فإذا كانت العلوم الاجتماعية تجمع على ان موضوعها هو الحياة الاجتماعية،وتتفق حول المنهج الذي هو المنهج العلمي والذي يفترض ما يلي :

1- دراسة الظاهر الاجتماعية دراسة موضوعية أو بمعنى آخر دراسة الواقع كما هو دون تحيز يمليه موقف معين أو تحدده مصلحة شخصية .

2-دراسة الظاهرة وذلك بهدف صياغة قانون أو فهم الأسباب والعوامل المتحكمة في هذه الظاهرة أو تلك.

يمثل تاريخ الانثروبولوجيا محاولات متميزة لمعرفة الشعوب البدائية، وتحويل تلك المعرفة إلى حقائق تعتمد على الملاحظة والمعاينة والمعايشة عوض التخمين.

وبالفعل الانثروبولوجيا بدأت بالتخمين فكانت الكتابات الأنثروبولوجية تصف الإنسان البدائي بالمتوحش والحيوان المفترس، ثم تحول إلى إنسان مهذب بعد ما اجتاز مرحلة البربرية، والتوحش وأصبح يعيش حياة من الرخاء والسلام .

   يمثل تاريخ الانثروبولوجيا محاولات لإبداع معرفة حول الشعوب الأخرى وذلك بهدف القطع مع الأفكار القائمة على أقوال الرحالة والمكتشفين وجنود الاستعمار. إذ نجد مثل هذه الكتابات مليئة بالتناقضات، فقد صور مفكرو - ق 17 و 16 – الحياة البدائية بكونها حياة منعزلة وقاسية وفقيرة وموغلة في التوحش.يقوم ها الفهم على التخمين والمبالغة ويبتعد كليا عن المنهج العلمي غير انه وعندما توفرت المعطيات والمعلومات عن هذه الشعوب خلال  الفترة الممتدة من ق 18 والنصف الأول من ق 19 تبين خطأ الصورة التي تشكلت عن الإنسان البدائي وتم الإقرار إن هناك جرما قد اقترف في حقه فوصف هذا الإنسان بالرقة والطبيعة والخيل وانه فقط في حاجة إلى مساعدة الإنسان المتحضر.

 في نهاية ق 19 إذ أصبح بالإمكان القيام بدراسات ميدانية والتي تمثلت في ملاحظة الواقع الاجتماعي بشكل مباشر فأصبح الباحث يقوم بجمع المعلومات والمعطيات ويقوم بتحليلها ودراستها عوض الارتكان على أخبار وأقوال الجنود والرحالة والمكتشفون .

   قامت الدراسة الميدانية على طرق بحث خاص والتي تمثلت في ما يلي:

الملاحظة  بالمشاركة:

وتسمى كذلك بالملاحظة الغير منظمة، والتي تفترض تواجد الباحث بذاته في مجال أو ميدان دراسته، وتطرح هذه التقنية مشكلة الدور ونعني به  الدور الذي ينبغي على الباحث أن يقوم به للحصول على المعطيات والمعلومات.

وترجع هذه المشكلة لأفراد القبيلة أو العشيرة التي يقيم فيها الباحث يتغير سلوكه كما ان أقواله الحقيقة والوقع أن هم شعروا أنهم موضوع ملاحظة وعلى هذا الأساس على الباحث أن يبذل قصار جهده بحيث يقبل كفرد من أفراد القبيلة أو العشيرة وان يعمل على كسب ثقتهم وان يبدد كل الشكوك المرتبطة بشخصه وذلك إن كسب الثقة يساعد في جمع المعلومات، وتكوين صورة واقعية ومتكاملة عن المجتمع المراد دراسته لذلك فإن الباحث مطالب بتعلم أسلوب حياتهم والتكلم بلغتهم والتفكير بنفس الضوابط والمفاهيم، وان يشعر بنفس القيم وان يشاركهم طعامهم، واحتفالاتهم وأن يرتدي نفس ملابسهم وباختصار عليه ان يتدخل كعضو في كل ما يتعلق بحياتهم. هذا ومن ناحية أخرى على الباحث أن يقوم بكتابة تقارير عن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياة المجتمع الذي يدرسه، فالملاحظة بالمشاركة تعتبر من الأدوات التي تستعمل في إيطار المنهج العلمي إذ أنها تسمح بالكشف وتحليل عناصر البناء الاجتماعي مثل نظام الزواج والقرابة والمعتقدات والطقوس.

خصائص الملاحظة بالمشاركة :

1- على الباحث في الانثروبولوجيا أن يجتاز مرحلة التخصص؛ وان تكون لديه معرفة نظرية كافية في ميدان الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الأخرى وفروعها .

2- .يتوجب على الباحث مشاركة أفراد المجتمع المراد دراسته والعيش معهم خلال مدة زمنية لا تقل عن سنة كاملة

3- أن يظل الباحث على صلة وثيقة بالسكان المحليين أو الأهالي. وان يشاركهم كل جوانب حياتهم ويتحدث بلغتهم الأصلية

4- ينبغي للباحث أيضا أن يهتم بالدراسة الكلية للمجتمع موضوع الدراسة، وان كان اهتمامه ينحصر في ظاهرة أو جانب محدد من هذا المجتمع.

5- كما ينبغي للباحث ان يتوفر على شخصية متميزة وقوية تمكنه من تحمل العزلة والظروف القاسية والغير الصحية ، كما ينبغي ان يتحمل التغير الحاصل في نظام الأكل والعادات وغيرها كما يتوجب عليه التخلي عن قيم مجتمعه وثقافته قدر المستطاع .

كما أن الباحث يحتاج إلى امتلاك مهارة أدبية تسمح له بنقل وتحليل البناء الاجتماعي، فالتكوين الأدبي للباحث في حقل الانثروبولوجيا يوفر الدقة في الوصف والملاحظة ، وبالتالي يفترض أن يكون هناك تقارب بين لحظة الملاحظة والتدوين .

تعتبر إجمالا الملاحظة بالمشاركة هي الأساس الذي تنبني عليه الدراسات الميدانية في الانثروبولوجيا غير أن هناك طرائق أخرى أهمها :

المقابلة غير الموجهة :

تستخدم في الدراسة الميدانية طريقة المقابلة الغير موجهة، وتتمثل هذه التقنية في مقابلة أفراد المجتمع الذين  يتمتعون بسمعة جيدة في المجتمع موضوع الدراسة،  ويحاول الباحث في المقابلات الأولية كسب ثقة المبحوثين بالشكل الذي يفتحون له قلوبهم ويبتعدون عن تزييف الوقائع والحقائق .  وتسمح لهم هذه الطريقة بإعطاء إجابات مطولة حيث يأخذون كامل الوقت للجواب دون أن يتدخل الباحث لتوجيه الإجابة نحو وجهة معينة بل وحتى عندما ينتقلون للحديث في موضوعات أخرى ينبغي تشجيعهم على ذلك .

وفي هذه الحالة فان الباحث مطالب إما بتدوين الإجابات في الحال أو تسجيلها بإحدى الأدوات الحديثة ، إذا اكتسب ثقتهم  ، أما إذا حصل العكس فينبغي أن يسجل النقاط الأساسية دون أن يحاول إثارة أية حالة من الشك .  ويطلب من الباحث في هذه الحالة ان يسجل كل التفاصيل مباشرة بعد إنهاء المقابلة، وذلك لتفادي نسيان بعض المعطيات

( كلمة مفقودة).  تتيح هذه التقنية إظهار السمات الشخصية للأفراد وإعطاء معلومات تفصيلية حول  الموضوعات التي تدور حولها وهذه الميزات لا توفرها المقابلة الموجهة .

سيرة الحياة أو السيرة الشفوية :

يستخدم الكثير من الباحثين سيرة الحياة أو السيرة الشفوية في أبحاثهم الأنثروبولوجية وتتلخص هذه التقنية في تبيين أهم مراحل حياة أفراد المجتمع موضوع الدراسة . وتكمن هذه التقنية في  أن يحكي المبحوث تاريخ حياته منذ الصغر إلى اللحظة الراهنة وتفترض هذه التقنية وجود الثقة المتبادلة بين الباحث والمبحوث إذ أن هذه الثقة هي التي تضفي خاصية الموضوعية على المعلومات التي يقدمها المبحوث ، وهي التي تفرض على المبحوث عدم إخفاء بعض المعلومات بطريقة مقصودة .

يترتب عن هذه التقنية جملة من السلبيات، ولعل أهمها يكمن في صعوبة تذكر بعض الإحداث التي وقعت في الماضي، كما أن هناك احتمال تضمين المبحوث لمعلومات غير صحيحة أثناء سرده لمراحل حياته لذلك ولتجاوز هذه السلبيات ينبغي على الباحث التأكد من صحة المعلومات التي تتضمنها سيرة الحياة وذلك من خلال الاعتماد على أكثر من مبحوث والمقارنة بين أحاديث المبحوثين والأخذ بالمعلومات المشتركة.

هناك الكثير من الأدوات و التقنيات التي يمكن للباحث في العلوم الأنثروبولوجية أن يستخدمها لاستنطاق المجتمع من خلال ثقافته لكي يصل في الأخير إلى أجوبة مفترة حول التساؤلات التي تراود عقله. كما يمكنه كذلك أن يستعين بالعديد من العلوم الأخرى لنفس الغرض.